فأرعها سمعَك (*)

يوم تنعدم الرؤية عند الكثيرين تحت وطأة العديد من الاعتبارات والملابسات، أو يعتريها ما يعتريها من الغبش عند آخرين؛ نتيجة الإعراض إلا عن الغرض الدنيوي القريب، وعدم المبالاة إلا بما فيه المنفعة العاجلة.. يوم تقع الأولى، أو الثانية، أو كلتاهما.. تشتد حاجة الأمة إلى من يبصرونها الطريق، ويرتادون لها المسالك التي تأخذ بيدها إلى ساحة وجودها، وبعدها عن الضياع من جديد.. الأمر الذي يضمن لها بمنهجية وموضوعية تفادي الوقوع في براثن الوهم المبرقش، والتزيين الخادع، وأن يكون الفكر والسلوك أشبه ما يكون بالأزياء التي يعد لها العارضات والعارضون حسب المواسم والمناسبات.

ولقد كان مما أكرم الله به هذه الأمة ـ وذلك معوان الرواد دائماً ـ أن جعل لرسالتها النص المكتوب المحفوظ، والواقع العملي المنقول بأمانة عبر التاريخ، يرثه الجيل اللاحق عن الجيل السابق، وطرح على طريقها الأساس الذي ترتد إليه الأمور كلما ادلهمت الخطوب، وغشي الرؤية ما غشيها من ثقل الفواجع.. ذلكم هو ربط الممارسة بالعقيدة، ووضع سلم للقيم من خلال هذا الربط الوثيق المحكم.

(*) مجلة حضارة الإسلام: العدد الرابع، السنة السادسة عشرة، جمادى الآخرة ١٣٩٥هـ، حزيران ١٩٧٥م.

فأعمال الفرد والجماعة والأمة على صعيد المسؤولية بشتى ميادينها ومراحلها، وعلى صعيد السلوك بكل مناحيه: إنما تقاس بمقدار قرب الممارسة من مقتضيات العقيدة أو بعدها. . كان ذلك منذ بدء الدعوة. . يوم شقت طريقها في مكة المكرمة. . وما يزال هو السبيل لوضع الأمور مواضعها في ظل تلك القيم التي أنيطت بها العلاقة بين الممارسة والعقيدة. . بذاتية وأصالة وبعد عن الهوى وضلال التقليد. . وهذا ما يجنب الأمة ـ في الوقت نفسه ـ مغبة الغفلة ويعطيها القدرة على الفصل بين الإفادة مما عند الآخرين وبين الذوبان وانعدام الهوية وتمزيق أواصر الانتماء. . فحراسة العقيدة قائمة. . والعلاقة بينها وبين الحركة لا يصح أن تنفصم. . وكلما عصفت الريح، أو ذرَّت الفتنة بقرنها. . وأريد للمؤمن في نفسه أو في أهله. . أو في أمته: أن يحيد عن الصراط السوي. . تذكر فاعتصم بخير معتصم. . فأبصر وتبصر. . وفوت على العدو غرضه. . وباء الناعقون بالإثم. ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾.

وهذا ما يذكرنا باتجاه أولئك الباحثين الذين لا يقتصرون بالإيمان على التصديق القلبي الجازم فحسب، وإنما يجعلونه شاملاً للعمل أيضاً ـ كما هو مذهب أهل السنة والجماعة ـ لأدلة كان منها قول الرسول ـ صلى الله وسلم عليه ـ: [**الإيمان بضع وستون ـ أو بضع وسبعون ـ شعبة، فأعلاها كلمة لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق**] وهذه الكلمات النورانية في رسم معالم الإيمان، نراها تفيض بياناً في ظل آية البر في سورة البقرة حيث جعل الله البر

ـ وهو الكلمة الجامعة لكل معاني الخير ـ بعضاً من أركان الإسلام وبعضاً من أركان الإيمان حتى ختمت الآية بفرائد من الأخلاق حين قال تعالى: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ نقول هذا غير ناسين أن من الممكن التوسع في فهم «إماطة الأذى» والإشارة في هذا المجال تغني. وما أشد وأعتى ألوان الأذى التي تتوجب إماطتها عن طريق المسلمين!!

وإذاً: فعندما يضع الحديث مدارج للإيمان تبدأ بكلمة التوحيد وتنتهي بإماطة الأذى عن الطريق.. عندما يضع الحديث ذلك يكون الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد رسم ببيانه النبوي وكلماته الجامعة كل الأطر التي يجب أن يتحرك خلالها المؤمن، وحدد كل المنطلقات التي تحمل الضمانة الكافية لمواكبة الرسالة التي حملها عهداً وبيعة، والتزم بمقتضياتها أمام رب العالمين.

ومن هنا كانت ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ في الخطاب القرآني، حداء أهل العزائم في الفهم عن الله أن كل صغيرة وكبيرة على صعيد الفرد والجماعة، وعلى صعيد المسؤولية برجالها وميادينها: قائمة على ربط العقيدة بالممارسة اليومية لشؤون الحياة ـ دون استثناء ـ وبالتالي: فمقياس الخيرية أو عكسها لابد أن يكون منوطاً بتلك القيم التي ينشئها الربط الوثيق بين العقيدة والعمل؛ فبمقدار ما يكون الالتزام: يكون حجم الحكم ونوعيته على هذا الإنسان أو ذاك، وعلى هذا العمل أو ذلك، بعد أن يكون المرء قد امتحن نفسه بأمانة. ولهذا قال عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: «إذا رأيت الله يقول: يا أيها

الذين آمنوا فأرعها سمعك، فإنما هو خير يأمر به، أو شرٌّ ينهى عنه». وهنا تكون قيم الأمة في معتقدها وتشريعها ومنهجها في الأخلاق والسلوك: هي الحكم في ملء ساحات الحياة. وهي صاحبة الكلمة المسموعة في تفسير الوقائع وقياس نجاحها أو إخفاقها.. كي تكون حركتها في التاريخ على صراط سواء مع الذي كان نقطة التحول في حياتها يوم أشرقت على ربوعها شمس: ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا** ﴾.

وما من ريب في أن الأمة اليوم.. وقد اختلط كثير من الباطل بالحق.. وتهاوت أقدام كثير من الضعفاء تحت مطارق الوهم ووساوس الأبالسة.. في إبراز الإسلام والعاملين له على الشكل الذي يريده أصحاب هذه المطارق وتلك الوساوس..

أقول: ما من ريب في أن الأمة حين تدعى إلى استئناف الطريق وإحكام الربط بين العقيدة والحركة في تصورها وعملها وحكمها على الوقائع والأشخاص.. إنما تدعى إلى الاختيار الصعب.. ولكن ليس غير هذه السبيل النيرة سبيل.. إلا ما يكون من سبل تقود أصحابها إلى الهلكة في الدنيا والآخرة.. ولجهنم ـ دائماً ـ دعاة على أبوابها من أجابهم إليها قذفوه فيها.. ومن استشرف للفتنة استشرفت له، وما ربك بظلام للعبيد ﴿ **وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ** ﴾.

وعندما نقول: إنه الاختيار الصعب فإنما نعني ما نقول، ذلك لأن عقبات جساماً من داخل النفس ومن خارجها، أصبحت جاثمة على طريق من

يبتغي الحق، ويعمل على أن تكون حبله موصولة بما جاء به محمد بن عبدالله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من البينات والهدى.

هذه واحدة، وأما الثانية: فإن هذا الاختيار لا يعزل الأمة عن الحياة، بل يدعوها للحياة، ولكن لا على طريقة السفاحين وأعداء الإنسان الذين يسخرون منجزات العقل لهدم الإنسان!! وكم تبذل من جهود.. وتستنفد من طاقات لاستخدام وسائل العلم الحديث، وأصول التربية وعلم النفس من أجل إعداد أو تنشئة على طراز معين من الفكر ولون متحيز من ألوان السلوك.. كي تحقق غايات نشط لها الأعداء من عشرات السنين.

من أجل ذلك ـ والله أعلم ـ بدأت كلمة الإسلام بقول الله تعالى: ﴿اقْرَأْ﴾ وعني النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالفرد ـ في كل مراحل العمر ـ أيما عناية.. وكانت للناشئة لفتات خاصة منه ـ عليه الصلاة والسلام ـ، من أجل أنهم النواة الطبيعية لتلك القاعدة التي يوجه إليها خطاب التكليف، وتنادى بـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ كي تستشعر دائمًا الأساس الذي يجب أن يقوم عليه البناء، وأن مقتضى الإيمان أن يصيخ السمع لنداء التكليف عقيدة وعملاً وجهاداً بما يلزم ذلك من الصبر والمصابرة.

نعم كانت للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لفتات خاصة إلى فلذات الأكباد. حتى إنه في شأن الصلاة التي هي ركن من أركان الإسلام ودليل صدق التوحيد على صاحبه، وبرهان الحرص على الصلة بالله عز وجل.. في شأن ذلك قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ موجهاً إلى تنشئة الأولاد عليها: [مروا

أولادكم بالصلاة لسبع سنين، واضربوهم عليها لعشر، وفرِّقوا بينهم في المضاجع] قال ذلك ـ صلوات الله عليه ـ يوم كانت الأمة تعي أن الصلاة صلة بين الله وعبده، وأن ذلك عنوان على سلوك ينتظم شؤون الحياة كلها، فالخالق الذي نؤمن بوحدانيته ونتوجه إليه بالعبادة.. ولا تصح الصلاة إلا بكلامه العظيم.. هو هو سبحانه.. الذي أكرمنا بشريعة لا تغادر ميداناً من ميادين الحياة إلا رسمت له ما فيه صلاح الدنيا والآخرة ﴿ **أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** ﴾.

ومن الناحية العملية: مر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بغلمان يتبارون في الرمي فقال لهم: [**ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً**]. وانضم مرة إلى فريق من الرماة الصغار فغلبوا رفاقهم.. فعزا المغلوبون انهزامهم إلى انضمام رسول الله ـ فداه أبي وأمي ـ إلى إخوانهم.. فانضم هو من جديد إليهم فكانت لهم الغلبة.. أرأيت!

والرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ عندما يعنى هذه العناية بالناشئة ويدلنا بقوله وفعله على ما به يصلحون لحمل الرسالة.. يبين لنا أن هذه القضية الكبرى في حياة الأمة لا تنطلق من فراغ.. وأننا حين نبني لا نكتب على الماء.. وإنما ننطلق من أن كل مولود يولد على الفطرة.. وأن عامل التربية من الوالدين أو من يقوم مقامهما له كبير الأثر ـ أو كله ـ في المحيط الذي يمكن أن يتثقف فيه الطفل بعقيدته وأخلاقه وسلوكه ومثله التي توجهه.. فإما أن تتساوق التربية مع الفطرة.. فيكون البناء السليم على الأصل الذي خلقه الله عليه.. وإما أن تنقلب الآية.. فتنحرف بالناشئ إلى

حيث تتغير الوجهة ويظلم الطريق والعياذ بالله . . لذا يبلغ الأمر بالرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ في تجنيب الأولاد أذى الانحراف ولو احتمالاً أن يقول للآباء والمربين عن الإخوة : [**وفرقوا بينهم في المضاجع**] .

وإذا كانت توجيهات الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو بالمؤمنين رؤوف رحيم ـ تنطبع بهذا الحرص على سلامة الوجهة وحسن الإعداد لحمل أعباء الرسالة . . فإنما ذلك منه فقرة من فقرات البيان والتطبيق للمحة كريمة من لمحات المنهج القرآني . . حيث دلنا القرآن بعمق على الواجب المحتوم تجاه الأسرة . . وأن خير الدنيا وسلامة العاقبة في الآخرة إنما يكونان بأن تستنفد كل الطاقات على صعيد التربية القرآنية لإعداد الجيل القرآني ؛ ذلك قول الله تبارك وتعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ** ﴾ .

ولقد كان الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ عند هذه الوقفة المحمدية في التوجيه . . ومن صور ذلك أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان يحاور أصحابه في مجلس من مجالسه ، فسأل عن الشجرة التي إذا قطع رأسها تموت . . وكأن الأمر غاب عن الموجودين . . وممن كان في المجلس عبدالله بن عمر وكان طفلاً . . فقال لوالده من بعد : لقد عرفت الجواب ـ إنها النخلة ـ ولكني هبت القوم ، فقال عمر ـ رضي الله عنه ـ «أما إنك لو قلتها لكانت أحب إلي من حمر النعم» .

وكان أن أثمرت هذه التربية المرتبطة بأصول العقيدة ومنهج القرآن ثمرتها . . حتى رأينا بعض الفتية الصغار ـ كما حصل لرافع وسمرة رضي الله عنهما ـ يتبارون في سلوك السبل التي تتيح لهم أن يحظوا بإذن المصطفى لهم بالاشتراك في القتال . . قتال أعداء الله . . وفي السيرة بخاصة، والتاريخ الإسلامي بعامة ومضات من ذلك وومضات . . جديرة أن يتدبرها أهل البصائر والقلوب .

ولم يتخلف الواعون من أبناء الأمة، عن أن يكون ضياء القرآن وهدي النبوة هما العنصران الرئيسان في إمداد الجيل بكل ما ينفعه وإعداده لحمل الأمانة في كل الميادين . . حتى حملت إلينا وقائع التاريخ نماذج رائعة من الوعي، والشعور بكرامة الإنسان . . الأمر الذي يدعو إلى كثير من الاعتزاز . هذا عمر بن الخطاب أمير المؤمنين يمشي في بعض أزقة المدينة . . وفي جانب من جوانب الطريق أطفال يلعبون، حتى إذا رأوا عمر انفضوا إلى هنا وهناك ماعدا طفلاً واحداً لم يبرح مكانه، فسأله عمر : ما لك لم تنصرف كما فعل رفاقك؟ فكان جوابه : ليست الطريق ضيقة فأوسعها لك، ولا أنا جانٍ فأخاف منك . وسأل عمر عن الطفل فإذا هو عبدالله بن الزبير . حتى على صعيد السمو الروحي والخشية من الله جلت قدرته . . رأينا من ثمرات الإعداد القرآني والتربية النبوية العجب العجاب، فقد ذكرت المصادر أن بعض العلماء كان يمشي في الطريق فرأى فتى صغيراً يبكي بحرقة، الأمر الذي لفت نظر هذا العالم، فقال : يا بني ما لك؟ وحاول

الطفل أن ينصرف عن الإجابة، ولكن تحت إلحاح ذلك العالم الجليل قال: يا عم رأيت أمي عندما توقد النار لتطبخ لنا، تشعل قطع الحطب الصغيرة، وبها تشعل القطع الكبيرة، فأنا أخشى أن يكون الأمر في جهنم كذلك عندما تسعَّر بأصحابها.. وأبكت الرجل الكبير كلمات الفتى الصغير، وأفاضت دموع الخشية من عينيه، وسأل عن الفتى.. فإذا هو زين العابدين بن الحسين -رحمة الله عليهم أجمعين-.

وهذا الذي نذكّر به هو الترجمان العملي.. والدليل القاطع لمن أراد مقنعاً.. وإنها لمواقف تدعو إلى التأمل المتأني العميق.. حين نحزم أمرنا على أن تكون الحلقات مترابطة في سلسلة تبدأ من إعداد الطفل وتنتهي بجنة عرضها السماوات والأرض، مروراً بميادين الفكر النقي الأصيل، والعمل المرتبط بالعقيدة.. والممارسة التي هي صورة عن صدق الإيمان.. والوفاء بعهد الإسلام وذمة هذه الأمة.. والعبير الذكي من دم شهدائها.. وتحرك أبطالها وعلمائها ومفكريها.

وغني عن البيان أن أقل ما يقال في هذا الأمر أنه لون من ألوان الاستجابة التي يفرضها القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ**﴾. إن الحياة الحقيقية بنص هذه الآية كائنة في الاستجابة لله وللرسول.

وهذا أمر لم يعد يحتمل أن يظل كلمات ميتة تتردد على الألسنة، والعمل في معزل.. ولئن ظل الأمر كذلك.. لسوف تنتصب هذه الكلمات حجة

على أصحابها في يوم لا مفر منه ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

ألا إن كلمة الله قائمة ما دامت السماوات والأرض... والخطاب القرآني آية الهداية لهذه الأمة، وقوتها بعد الضعف، وعزها بعد الذل... وليس بمغنيها عن ذلك تعللات.. ولا تأولات.. فطريق الإسلام بيضاء نقية ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك..

ومن الخير أن نكون على ذكر من قول الله تبارك وتعالى في رسم معالم الطريق: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾.

﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

ومن أحسَن منَ الله صِبغة (*)

ما نظرت في شيء من أخبار الإسراء والمعراج، إلا شدتني ذكرى المعجزة إلى دلالة المعجزة، واستوقفني ما هو عميق في أبعاد التاريخ. . لأرى من طريق النقيض واقعاً ضربته الغربة، وعدا عليه الاستخذاء. . حتى تبدلت المعالم واشتد على حداة الركب الظلام.

ذلك لأن المعجزة ـ بوصفها دليل صدق الرسول في دعواه ـ، تجعل من الإسراء والمعراج قضية كبرى في حياة المسلمين، تبعث في القلب مزيداً من الطمأنينة، إلى أنه لا مندوحة من طريق صاحب الذكرى. . وأنه لا عذر لمتخلف. . في الابتعاد عن نهج الهدى الذي جاء به محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأن الذين يستعلون بالإيمان. . فيتجاوزون الصعوبات، ويقبضون على الجمر في ظلام الغفلة والبعد عن الله. . هم على قدم الصدق في ضياء المحجة البيضاء.

وعلى هذا. . فالدعوة إلى سلوك ذلك النهج مجدداً. . حيث يتوافر للمؤمن تفتح العقل واستنارة القلب، ووعي الواقع، وصدق الالتزام. . هي دعوة الخير. . والنصح لله ولكتابه ورسوله والمسلمين.

وليس ما نقوله بدعاً في الوقفة المستأنية الواعية عند هذه الذكرى. . لكنه في نظرنا واجب الدعوة إلى أن تكون الأمة على يقظة في ربط ماضيها

(١) مجلة حضارة الإسلام: العددان الخامس والسادس، السنة السادسة عشرة، رجب وشعبان ١٣٩٥هـ، آب وأيلول ١٩٧٥م.

بحاضرها في منهجية وموضوعية . . من طريق العقيدة التي هي قاعدة فكرها وتصورها، وسنام الأمر في عمق نظرتها إلى الحياة . . تلك العقيدة التي حملها إلى الناس محمد بن عبدالله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وحياً من عند ربه عز وجل، وجاءت المعجزات تؤيد أنه إنما يبلغ عن رب العالمين .

وحين تكون القضية علي هذه الشاكلة . . تعطي المعجزة في دلالتها وأبعادها أيضاً . . قيمة من قيم دعوة الإسلام . . في ماهية الرابطة التي يجب أن تكون مدار العلاقة بين المؤمنين . . ذلك أنها تأخذ القلب إلى القلب، والمشاعر إلى المشاعر . . في جو من صبغة الإيمان التي هي صبغة الله، ومَن أحسن من الله صبغة، وعندها تبدو والروابط المصطنعة الأخَر روابط مقطوعة عن الحياة . . مهلهلة تافهة ـ عندما يراد الاقتصار عليها ـ لا تقوى على خدمة الحق أو تجاوز الصعوبات . . من أجل هذا كانت الحقيقة التي أعلنها القرآن الكريم ﴿ **لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ . .** ﴾ . ﴿ **وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا** ﴾ .

ومن هذه النافذة المضيئة : إذا كان الإسراء والمعراج مع وصف المعجزة العظيمة الباهرة . . لوناً من إكرام الله لنبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ في السنة التاسعة، ومواساة له في ما كان عام الحزن، حيث وفاة عمه الذائد عنه أبي طالب، وزوجه الصادقة الوفية الصابرة الحصيفة خديجة ـ رضي الله عنها ـ، وما كان من ثقيف حين ارتحل إلى الطائف يدعوها إلى الله . . أقول : إذا كان

الأمر كذلك . . فإن ما يهيم فيه المسلمون من واقع التجزئة والتمزق في الأرض والفكر . . والقضايا الملحة هنا وهناك . . وعميق الجرح في فلسطين وما حولها، حيث المسجد الأقصى ينادي المشاعر ويعتصر القلوب . . إن هذا الذي يأخذ على الأمة مكامن انطلاقها، وأداء رسالتها: جدير أن ينظر إلى علاجه وطريق الفكاك من أساره من خلال وحدة العقيدة وما ألف الله عليه القلوب . . على اختلاف الأجناس والألوان والألسنة والأمصار . . ومن خلال العلاقة بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى . . تلك العلاقة التي لا يفصم عراها الزمن مهما استشرى البغي واستنسر البغاث . . وذلك ما يمكِّن لكل الروافد في دنيا الإسلام أن تنصبَّ في نهر الاهتمام الصادق . . الذي لا غرض من ورائه إلا نصرة الحق الذي أسلمته إلينا الأجيال التي أسلمت وجهها لله . .

وليس آخر الثمرات لذلك ما يكون من الجهاد في سبيل الله . . حيث تحشد الطاقات كلها . . والمقدورات كلها . . تحت سلطان العقيدة . . التي تجعل العمل الدائب لإعلاء كلمة الله أمراً لازماً . . لا يجوز التحلل منه إلا بعذر قاهر ترتضيه شريعة الله . . إذ كيف تعلو كلمة الله في أرض للغاصب الدخيل فيها أيد وسلطان، فهو جاثم بكل دنسه وأوضاره على مرابع القداسة والطهر . . يعبث حتى في الأقصى مسرى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فساداً وولوغاً في الإثم . . وعدواناً على الفضيلة وإنسانية الإنسان . . وزاد الأمر ضغثاً على إبالة ما لبِّس على الأمة في شؤونها . . فأصبح غير قليل من أبنائها ـ نتيجة ذلك التلبيس ـ يرى المعروف منكراً والمنكر

معروفاً، بل ترى البعض يقع في معرة الأمر بالمنكر والنعي على المعروف. . وما أوسع الميادين التي جعل الإسلام فيها حراسة المجتمع من الداخل، وعنوان الوعي في الشعور بالمسؤولية: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. . فالمفروض أن تدرك الأمة ما هو معروف، وتدرك ما هو منكر ـ على كل صعيد ـ ويقف كلٌ عند المسؤولية فيما ولاه الله رعايته من الأمر فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر. .

وعندما نقول هذا في ذكرى الإسراء برسول الله من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثم العروج به إلى السماء. . وإكرام الله له بذلك. . وما كان من فرضية الصلاة ليلتذاك. . فإنما ندعو إلى الخطوة الواعية الحازمة التي يفقه أصحابها معنى العقيدة. . ومقتضياتها. . وساحات التزام تلك المقتضيات. . ومن ذلك أمر الله بالإعداد. . في شموله ومقدماته وحقيقته. . وتنوع ذلك حسب تطور العصر ومنجزات العلم الحديث. . لأن القرآن الكريم كان من إعجازه في تشريعه وتوجيهه أن جاء بالعموم والإجمال في أكثر القضايا. . تاركاً ـ مع البيان النبوي ـ للزمن ومقتضياته علاج ما يكون من قضايا طارئة في ضوء تلك الكليات الكبرى. . وضمن خطوطها التي رسمتها النصوص.

نقول هذا ـ ونحن على مثل اليقين ـ من أن تلك الألاعيب الغبية أو الذكية. . وتلك المعادلات الظالمة التي تترتب ـ كما هو الزعم ـ على الدعوة إلى الحقيقة كما يراها الإسلام، بعيداً عن المعرفة والقوة، ومعطيات العلم

التقني . . لم تعد تنطلي على الواعين من أبناء الأمة . . إلا أن يكون هنالك المتغافلون الذين يكتمون ـ تحت وطأة مرض القلب ـ ما يعتقدون أنه الحق . . تمكيناً لأهداف هي أكثر ظلماً وشناعة من تلك المعادلات وأهليها .

ألا إن ذكرى الإسراء والمعراج . . والنظر من خلالها إلى واقع يذوب له القلب . . بوصفها واحدة من معالم الضياء في كيان الأمة . . من حيث صدق الرسالة . . ورابطة العقيدة بين المؤمنين . وما يترتب على ذلك من مسؤولية يؤكدها مفهوم الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى . . وصلاة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيه بالأنبياء ، بين يدي عروجه إلى السماء . إن هذه الذكرى جديرة ، . . إذا انحسر طائف شياطين الإنس والجن . . أن تتفتح لها القلوب . . وأن تتبصر دلالتها العقول . . كي تقول العقيدة كلمتها . . وتقف الأمة حيث ارتاد لها المجاهدون الأولون الطريق . . لتكمل يدي عروجه إلى السماء رحلة الإيمان والصبر في سبيل الله . . فتجند كل الطاقات على صعيد وطننا الكبير . . لأن المشكلة مشكلة كل من يدين بهذه العقيدة . . ويهفو قلبه إلى أرض الإسراء والمعراج . . ويلذع كبده أن يعيش اليهود على أرض الطهر والقداسة . . ويهددوا بوجودهم ومخططاتهم المفضوح منها والخفي . . حتى أرض الحجاز وما عليها من مهبط النور ومهد الرسالة . . ولله الأمر من قبل ومن بعد . . ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ** ﴾ وسبحان القائل في كتابه الكريم ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾ .

لعلكم تتقون (*)

يتقلب الليل والنهار . . ويذهب جيل ليسلم الراية من بعده إلى جيل . . وتظل القضية المطروحة في دنيا هذه الأمة ـ ومصابها اليوم ظلام ودخَل ـ : إلى أي حد بلغ بنا الوعي الذي قوامه استئناف الطريق التي شرعها رب العباد . . وأداها رسالة ربانية نبينا الكريم ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ، وحولتها العصبة المؤمنة ـ على مدى التاريخ ـ إلى واقع عملي يسعد الإنسان ويضع الأمور في نصابها على اختلاف الأجناس والألوان والأمصار، وعلى تقارب أو تباعد حقب التاريخ . . وتلون الخصائص في الأرض والمناخ والمناسبات؟! ذلك لأن الرسالة هي نفسها كانت قادرة دائماً على إيجاد المناخ عند استجابة الإنسان . . وسرعان ما تتحول الطاقات كلها إلى عطاء . . وما كان منها هدراً ضائعاً أصبح مثمراً يتخطى الحواجز والحدود . . وهذا كله لا يتنافى مع هنات تقع هنا وهناك . . ولكن الذي يلف الكيان هو ذلك الحزام المضيء من مبادئ الرسالة وأحكامها، والتباري في تطبيق شرعها وحسن الالتزام بها .

أقول هذا وهلال شهر رمضان المبارك يطل على أمتنا في وقت تكاثفت فيه الظلمات . . وضاقت الحيلة . . وبدت في كل جانب من جوانب الطريق فتنة تدع الحليم حيران .

(*) مجلة حضارة الإسلام : العدد السابع، السنة السادسة عشرة، رمضان ١٣٩٥هـ، تشرين الأول ١٩٧٥م.

ذلك أننا لن نبلغ درجة الإفادة الحقة من هذه الشرعة المباركة صوماً عن المفطِّر إيماناً واحتساباً وتلاوة وتدبراً للقرآن . . وخشوعاً صادقاً لله تبارك وتعالى . . إلا إذا تحركنا مع حداء القرآن الكريم . . ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾ ثم مع المحتوى التاريخي والعملي لهذا الشهر المبارك في كونه شهر القرآن وبدر والفتح وليلة القدر . . فهو طاعة ومعرفة . . وجهاد وصبر . . ومصابرة وعبودية . . وإذا كان الوعي لاستئناف الطريق لابد له ـ كما هو الأمر في المنهج الرباني ـ من إعداد الفرد، واستعادة الإطار العام النوراني لحياة الأمة . . فإن شهر رمضان بكل ما فيه من الخير؛ صوماً عن المفطِّر، والتزاماً لكل ما فيه الحراسة الصادقة للإمساك، وسلامة النزوع إلى الأفضل في المعاملة مع الله ومع الناس . . وبما يحمله لنا نحن المسلمين من ذكريات نزول القرآن والجهاد في معركة الفرقان والفتح وغيرهما . . قمين أن يحقق كثيراً مما يبتغيه الرواد الصادقون لهذه الأمة . . التي تداعى عليها الأعداء تحت شتى العناوين كما تداعى الأكلة إلى قصعتها .

إن جانباً كبيراً من الأهمية في الموضوع : يكمن في القدرة على تجاوز السطح إلى القاع . . وإلى الربط بين عبادة الصوم وما يحمل رمضان من ذكريات ومعالم، وبين الغايات الكبرى التي من أجلها شرعت العبادة وعنوان ذلك قول الله تعالى : ﴿ **لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾ .

وإذا كانت التقوى مفتاح كل خير . . وعنوان كل فضيلة، ودليل الصدق مع الله تعالى . . فذلكم طريقنا إلى استئناف طريق الرسالة المحمدية بكل

التزاماتها وشمولها لجميع شؤون الحياة. . فالتقوى عبادة، والتقوى علم وعمل بالقرآن. . والتقوى جهاد صادق في سبيل الله. . كي تكون كلمة الله هي العليا. والتقوى استعلاء على الدنايا والطواف حول الذات، دونما حساب للمسؤولية يوم يقوم الناس لرب العالمين. . إن التقوى على كل صعيد من هذا الذي ذكرناه هي بعض ما يوحي به قوله جل وعلا: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾. دونما نسيان لقضية كبرى وهي أن رمضان شهر المغفرة والعتق من النار.

إن الواقع الأليم الذي يلف حياة الأمة في أرضها وفكرها وتنشئة أجيالها. . جيد أن يكون صوتَ النذير لإحلال عبادة الصوم محلها اللائق في النفس والقلب والعقل. . وتهيئة المناخ المناسب للإفادة من ذكريات رمضان التي أوجدت الإنسان، وبنت الأمة التي مكن الله لها في الأرض.

وهذا التمكين الذي تفردت به هذه الأمة كان قوامه أنها حملت العقيدة، فكان الجهاد في خدمة العقيدة. . فقدمت للناس نسقاً جديداً للحياة. . وكان القتال في خدمة الغاية الكبرى التي يعنيها قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: [**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**].

واستطاع المقاتل المسلم بصومه عن الدنايا، واستعلائه على الركام وزهادته في الحياة المحدودة هنا. . أن يفطر على الموت في خضم المعركة، وأن ينشد الشهادة ومثارُ النقع منعقد فوق رأسه. . وأن يكون بعقيدته وفكره وجهاده والنظام الذي تبناه: بلسماً لجراح الإنسانية في كل صقع ارتفعت فيه

كلمة «لا إله إلا الله». وهذا فارق ما بيننا وبين غيرنا، عقيدة مباركة، وإنسانية مضمونة مصونة، والتصرفات كلها تحمل السعادة في الدنيا والآخرة. إلا أن الأمة اليوم على وجه العموم - وفي جيلها الناشئ على وجه الخصوص - بأمس الحاجة إلى دمٍ جديد ونسغ جديد، ولا يكون ذلك إلا من النبع المحمدي الأصيل. . وعندها تبدأ كلمة التوحيد أن تكون وقود حياتنا مجدداً. . ونعود بالقرآن في مدلولاته وكل ما يريد إلى خير أمة أخرجت للناس. . ونؤوب بعد الضياع لنكون في عداد القافلة التي قاد خطاها محمد ابن عبدالله - صلى الله عليه وسلم - عندها نكون سادة الموقف، نملي ولا نستملي، ونعطي ولا نستجدي. . ولأن موقفنا موقف الأصالة والذاتية. . فلسنا عبيداً إلا لله عز وجل.

ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله. . ويبصر من لهم بصيرة بأم أعينهم صدق ما كتب الله على اليهود وأذنابهم من الذلة والمسكنة. . ويتبين العقلاء كل العقلاء. . أن ضعفنا اليوم هو الذي يظهرهم - بالدرجة الأولى - من الأقوياء، فحين نعود إلى القافلة بحرارة الإيمان وشجاعة الجهاد، والرغبة في الشهادة، وصدق الالتزام بالإسلام: تعود الأمور إلى نصابها، ويصدق فينا قول الله تعالى في شأن المؤمنين يوم الأحزاب: ﴿**وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا**﴾.

ومن هذه الزاوية ترى شناعة ما يلغ فيه من الإثم أولئك الذين ينتهكون حرمة هذا الشهر المبارك بكل ما له من الفضائل والخصائص وما هو مثقل به

من ذكريات القوة والخلود، فيخونون الأمانة ويضعون أنفسهم في مصاف المخلوقات التي ليست أهلاً للتكليف، ويعْدون على النظام العام لأمة كانت بهذا الدين خير أمة أخرجت للناس. . والمفروض - بقليل من الذوق - أن يكون هنالك على الأقل صون لمشاعر الآخرين أن تجرح من قبل أدعياء التحضر والذوق. ليت شعري أليست كل تلك النذر المزروعة على طريقنا كافية للردع عن مهاوي الضياع، وحملنا إلى حيث تكون أركان الإسلام مما يزداد به سلوكنا وتصرفنا وما يُمليه الوفاء لأمتنا ورسالتها في العالمين. . وأن ينهض المتثاقلون إلى ساحة الرشد فيُخلصوا لأنفسهم ولأمتهم ويدعوا التراقص على مزامير الشيطان.

إن عبادة الصوم في رمضان - وهي من عيون أركان الإسلام - قادرة في كل وقت إذا نحن صدقنا العهد، وصحونا على حداء القافلة من جديد: أن تصوغ الجيل المؤمن القوي المجاهد الذي تناط به الغايات الكبار، وتحقق آمال الأمة التي تتطلع لها عبر السنين، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون، ولله الحمد أولاً وآخراً، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

قبسٌ من أحُد(*)

هذه هي المعركة التي أريد لها أن تكون في تاريخ هذه الأمة صورة واضحة لتمييز المؤمنين من المنافقين، والمثل الناطق العميق للمنهج الرباني في بناء الجماعة المسلمة على بصيرة وإدراك لسنن الله في الحياة، وإعدادها بالقيم والممارسة العملية لحمل الرسالة التي أنيطت بها يوم تأذن الله فأوحى إلى عبده ونبيه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما أوحى.

ولعل من أوضح ملامح البناء والإعداد: ذلك التركيز على وجوب سلامة التصور عند المسلم، وتقويم المعوج فيما حصل، وإعطاء كل جزئية قدرها من الحكم، وبيان موقعها من الكلية العامة في الموضوع، ثم ربط الأمور كلها بقواعدها الثابتة التي تجعل المسلم على صلة دائمة بمنطلقاته الأولى، عملاً على تنقية الصف من الدخيل، وطاعة القيادة المؤمنة الراشدة، وأخذاً بالأسباب بوعي وتكامل، مع صدق التوكل على الله الذي لارب غيره ولا خير إلا خيره، وسلامة الاتصال بالقيم التي أوحى الله بها إلى نبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ. كل ذلك حيث مستلزمات الإيمان ومقتضيات العقيدة التي حملها المؤمن بين جنبيه يوم رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ نبياً ورسولاً.

هذه مدينة الرسول يلف كل بيت فيها ترقب ما يمكن أن يكون بعد أن

(*) مجلة حضارة الإسلام: العدد الثامن، السنة السادسة عشرة، شوال ١٣٩٥هـ، تشرين الثاني ١٩٧٥م.

عسكرت قريش وأحلافها من الأحابيش وغيرهم في ثلاثة آلاف مقاتل أو يزيدون ومعهم النساء، قريباً من «أحد» في خطة زحف على المدينة بعد عام واحد من معركة «بدر» التي كانت الدولة فيها للمسلمين، وتركت ما تركت عند أهل الشرك من الآثار العميقة الغائرة في النفوس.

وتداول المسلمون الرأي ومعهم النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ. وكانت الرغبة في الخروج إلى العدو وقتاله خارج المدينة جامحة عند أكثرهم، وفيهم الشباب الذين لم يحضروا بدراً، حتى قال نعيم بن مالك: يا رسول الله، لا تحرمنا الجنة، فوالذي نفسي بيده لأدخلنها. فقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: [**بِمَ**]؟ قال: بأني أحب الله ورسوله ولا أفر يوم الزحف، فقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: [**صدقت**]. واستشهد يومئذ. ونزل الرسول على رأيهم مع أنه كان ومعه بعض الصحابة أميل إلى البقاء في المدينة وقتال العدو فيها..

وصحا الراغبون في الخروج على أنهم استكرهوا الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ على رأيهم، فقالوا: يا رسول الله، ما كان لنا أن نخلفك، فاصنع ما بدا لك! فقال لهم: [**ما كان لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه**]. وكانت هذه واحدة من وقفاته ـ عليه الصلاة والسلام ـ حزماً في أعقاب المشورة وتوكلاً على الله بعد العزم، فالمشورة تأخذ طريقها، حتى إذا انتهى إلى رأي فلابد من العزم والتوكل، وتأيد ذلك بقوله: [**قد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتم إلا الخروج فعليكم بتقوى الله والصبر عند البأس، وانظروا ما أمركم الله به فافعلوا**].

وكانت ظاهرة التميز بين الإيمان والنفاق حين نغرت على عبدالله بن أبي بن سلول غائلة النفاق، فانحاز عن طريق المؤمنين وانسحب مع من سمعوا لقوله عائداً إلى المدينة، بحجة أن الرسول ترك رأيه إلى الآخرين في شأن القتال من داخل المدينة!! ولو كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان لعلم أن مقتضى العقيدة غير هذا، وأن طاعة رسول الله من طاعة الله، خصوصاً أن رسول الله رأى - كما يبدو - أن الحفاظ على سنة الشورى هي الخير، وأنها - على العموم - أسلم عاقبة وأقوم طريقاً.

ولكنها حكمة الله في أن يميز الخبيث من الطيب، ويقع التمحيص الذي يظهر كلاً على حقيقته دون غبش أو زيف، وما كان مخبوءاً في النفوس يستعلن بالعمل والسلوك، مصداق قوله جل وعلا: ﴿ **مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ** ﴾.

وحين لحق عبدالله بن حرام بالعائدين أهل الخيبة يدعوهم إلى الثبات ومتابعة السير في ركب الجيش المسلم، وأن عليهم الدفاع عن المدينة ضد المغير دفاعاً - على الأقل - عن أموالهم وأعراضهم: أبى عبدالله بن أبي - ولله الحمد - أن يعود، وفيه وفيمن تبعه نزل قول الله تعالى: ﴿ **وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لَّاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ** ﴾.

ورسم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خطوط المواجهة متى وكيف تكون، ونظم رجاله السبعمئة أدق تنظيم.. وأعلم الرماة الخمسين بقيادة

عبدالله بن جبير شديد حرصه على أن يلزموا أماكنهم ولا يدعوها مهما تكن الأسباب!! ثم أذن ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ لأصحابه ببدء القتال.. والتحم الفريقان على غير تكافؤ في العدد ولا في العدة.. وأعلنت العقيدة إعلانها.. وسرت في جو المعركة روح التضحية الفذة، والبذل السخي، والعطاء الإيماني الرُّخاء ـ حيث الجود بالنفس أقصى غاية الجود... ـ ما أذهل المشركين وجعلهم يولون الأدبار لا يلوون على شيء.. ويسقط اللواء من الأيدي التي تعاورت عليه.. حتى تكون عمرة بنت علقمة الحارثية هي التي ترفعه من التراب بعد أن صرع حامله وسقط على الأرض.

وكان حمزة عم رسول الله كالجمل الأورق، يهد المشركين فيلقي في قلوبهم الرعب.. ويزلزل مع إخوانه صفوفهم لما أنه يقاتل كالليث المهتاج، فلا يقوم له شيء، وقد صمد لحملة اللواء من بني عبدالدار، وأنزل بهم ضربات كادت أن تودي بهم أجمعين.. لولا أن وافته المنية ـ رضي الله عنه ـ وأرضاه، واستشهد بحربة وحشي الذي فعل فعلته ثمناً لحريته عند جبير بن مطعم.

وأبلى المجاهدون أكرم البلاء حتى رأيتهم ـ وقد وجدوا ريح الجنة دون أحد، واستشرفوا منازل الشهداء هنا وهناك ـ يرسمون بدمائهم على أرض التاريخ عنوان القوة والاستمرار لدعوة التوحيد.. ويصوغون من أشلائهم معالم انتصار العقيدة.. قال عبدالله بن جحش في ذلك اليوم: «اللهم إني أقسم عليك أن ألقى العدو غداً، فيقتلونني ثم يبقرون بطني، ويجدعون أنفي وأذني، ثم تسألني فيمَ ذلك؟ فأقول: فيك». وقال عبدالله بن عمرو بن

حرام: «رأيت في النوم قبل أحد مبشر بن عبدالمنذر يقول: أنت قادم إلينا في أيام. فقلت: وأين أنت؟ قال: في الجنة نسرح فيها حيث نشاء. قلت له: ألم تقتل يوم بدر؟ فقال: بلى، ثم أحييت. فذكرت ذلك لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال: [**هذه الشهادة يا أبا جابر**].

وبينما الأمور تسير على هذه الشاكلة، والمنايا تصبها أسنة المسلمين على أعداء الله ورسوله، فتجندل منهم من يتجندل، ويولي فراراً من يولي.. إذا بشيء جديد يغير وجه المعركة لغير صالح المسلمين، ذلك أن الرماة ضعفوا عن استدامة الامتثال.. وتركوا مواقعهم التي أمرهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يلزموها ولو تخطفتهم الطير.. وظنوا أن ليس للمشركين رجعة بعد أن أوقع بهم.. وكانت الفاجعة الأليمة حين أدار خالد رأس فرسه وعاد إلى الميدان، وصعد الجبل فاحتل بجنده الثغر الذي أخلاه الرماة.. وأقبل المنهزمون من جديد، فالتفوا حول خالد، وأحاطوا بالمسلمين إحاطة أثقلت كواهل الفئة المؤمنة، ووقع ما لم يكن في الحسبان من اضطراب الصف، وكثرة القتل، حتى استشهد عدد كبير من أولئك الصفوة الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه. وانطلق أكثرهم يُصعدون ولا يلوون..

ولم يكن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في نجوة مما حصل؛ فقد استهدف ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بصورة ملحة وإصرار عنيد من المشركين.. فكسرت رباعيته اليمنى في الفك الأسفل، وهشمت البيضة على رأسه، وسقط ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ في حفرة من الحفر التي كان

أبو عامر الفاسق قد حفرها وغطاها يكيد بها المسلمين، وشج في وجهه، ورمي ـ فداه أبي وأمي ـ في وجنته حتى غاصت فيها حلقتان من حلق المغفر. . ونزع أبو عبيدة السهم الأول عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فندرت ثنيته معه. . ثم نزع السهم الثاني فندرت معه الثنية الأخرى.

وكان أبو دجانة يترس بظهره على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والنبل يقع فيه وهو لا يتحرك ولا يكشف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ. وفي صحيح مسلم أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أفرد يوم أحد في سبعة من الأنصار ورجلين من قريش. . فلما رهقوه قال: [**من يردهم عني وله الجنة**]؟ فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل، ثم رهقوه فقال: [**من يردهم وله الجنة وهو رفيقي في الجنة**]. فلم يزل كذلك حتى قتل السبعة فقال رسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ: [**ما أنصفنا أصحابنا**]. ثم جالدهم طلحة بن عبيدالله الذي كان يثوب سريعاً إلى رسول الله ويقف دونه وحده حتى يصرع. . جالدهم حتى أجهضهم عنه.

وقد بلغ الإعياء برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه وهو يصعد الجبل والمشركون يتبعونه أراد أن يعلو صخرة فلم يستطع لما به. . فجلس طلحة ـ رضي الله عنه ـ تحته حتى صعدها. وحانت الصلاة، فصلى بهم جالساً.

وفي هذه الساعة العصيبة حيث الهول يشتد والأخطار تحدق. . صاح صائح إن محمداً قد قتل!! وسرت الكلمة السوداء سريان النار في الهشيم، فكانت الفاجعة التي زلزلت البقية الباقية في بعض النفوس. . فراح أصحابها هائمين صوب المدينة، وفتر بعضهم عن القتال مما أصابهم من

اليأس، واعتراهم من الكلال، لما أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما نمي إليهم ـ قد قتل وانتهى الأمر.

غير أن التماعة تتمثل في أنس بن النضر الذي لم ينهزم: أضاءت في حومة هذا الضياع.. حين قال لثلة من هؤلاء: فما تصنعون بالحياة من بعده، قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

كل هذا والوقفة الصابرة المستميتة دون رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والاستجابة لنداءاته المتكررة: تعمل عملها في تقرير المصير؛ فقد انكسرت حدة العدو في محاولة قتله ـ فداه أبي وأمي ـ وبدأ أصحابه يثوبون إليه من هنا وهناك.. وبيقظة إيمانية استطاعوا إنفاذ أمر رسول الله بإجلاء المشركين عن القمة التي احتلوها في الجبل، إذ حصبوهم بالحجارة حتى انكشفوا عنها.

وكان من كريم فضل الله أن أنزل السكينة على هذه الفلول التي راحت تتجمع حول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بدافع إيمانها.. وأعاد إليها بعد ذلك التشتت والاضطراب قدراً كبيراً من الطمأنينة والثقة.. حتى بدأ النعاس ـ والحال هي الحال ـ يخالط العيون، والكرى يداعب الأجفان ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ﴾.

كان ذلك.. وكان معه ـ في ما يبدو ـ شعور غالب عند قريش.. أن ما حصل هو صورة النصر وليس حقيقته.. وأن جولة تكسبها فئات تجمعت على سلبيات وردود فعل وارتجال لا تعني تجاوز السطح إلى الأعماق في مواجهة قوة سداها ولحمتها العقيدة التي أثمرت ـ فيما أثمرت ـ حب رسول

الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والبذل دونه مهما غلا الثمن . . والغفوة العابرة حاشا أن تعني الموت . . والأيام دول .

هذا أبو سفيان، يشرف على الجبل فينادي : أفيكم محمد؟ فيقول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : [**لا تجيبوه**] . فيقول : أفيكم ابن أبي قحافة؟ فلم يجيبوه . فيقول : أفيكم عمر بن الخطاب؟ فلم يجيبوه . ولم يسأل إلا عن هؤلاء الثلاثة . فقال مخاطباً قومه : أما هؤلاء فقد كفيتموهم . فلم يملك عمر ـ رضي الله عنه ـ نفسه أن قال : يا عدو الله، إن الذين ذكرتهم أحياء، وقد أبقى الله لك ما يسوؤك! فقال : قد كان في القوم مثلة، لم آمر بها ولم تسؤني ـ يشير بذلك إلى ما صنعت زوجه بجثمان حمزة رضي الله عنه ـ .

وقولة أبي سفيان هذه لها دلالتها في ما أشرنا إليه . ثم قال يلتمس واهماً أن يقنع نفسه بما حوله يتجمعون من الوهم : أُعْل هبل!! فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : [**ألا تجيبونه؟**] قالوا : بماذا نجيبه؟ فقال لهم ـ وهو سيد المعلمين والمربين ـ [**قولوا : الله أعلى وأجلّ**] . قال : لنا العزى ولا عزى لكم!! فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : [**ألا تجيبونه؟**] قالوا : بماذا نجيبه؟ قال ـ ودماء الشهداء تلتمع أمام ناظريه، والأشلاء المتناثرة تبني جدار التاريخ ـ : [**قولوا : الله مولانا ولا مولى لكم**] . قالها في أعقاب المحنة، يشدهم إلى الكلمة التي جمعتهم من أول يوم . . وإلى الحق الذي من أجله كان العطاء السخي، وكان البذل العارم في سبيل الله . قال أبو سفيان : يوم بيوم بدر، والحرب سجال!! فقال عمر : ـ واسمعها من عمر ـ

لا سواء؛ قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار. نعم.. لا سواء وألف مرة لا سواء.. ولقد كان أبو سفيان من الذكاء بحيث لم يفته مدلول هذه الوقفة التي عبرت عنها كلمات هي فيصل الطريق بين قريش وبين رسول الله من أول يوم دعا فيه قومه إلى الحق.. خصوصاً أنها تقال وما تزال سيوف أعداء الله تقطر دماً من جراح المسلمين وضحاياهم.. لقد كانت قريش مع كل التبدل الذي حصل على أرض المعركة عاجزة عن أن تنال أي غنيمة باردة دون أن تدفع الثمن غالياً، وكان يزاولها ما يزاول إنساناً قام في ظل جدار يريد أن ينقض. وأمام هذا كله رضي القوم من هذا التبدل بالإياب.. إذ لما انجلت المعركة جنبوا الخيل، وامتطوا الإبل، وتوجهوا إلى مكة، بعد أن وقع في روع المسلمين أنهم لا بد قاصدو المدينة لينالوا من الديار والأموال والأعراض.

ولم يكن بدعاً أن يقف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد المعركة على جثمان حمزة بعد أن مثل به فيتأثر تأثراً شديداً ويقول: [**لن أصاب بمثلك أبداً، وما وقفت قط موقفاً أغيظ لي من هذا**]. وبإشراقة نبوية كريمة في أمر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يدفن شهداء أحد في مصارعهم: ما يذكِّرنا بقوله فيما بعد: [**أحد جبل يحبنا ونحبه**].

ووقف ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ يدفن الرجلين والثلاثة في اللحد الواحد، وعلى خط متكامل في الإعداد والربط بمصدر الرسالة، كان يسأل أيهم أكثر أخذاً للقرآن؟ فإذا أشاروا إلى رجل، قدمه في اللحد.. أرأيت إلى هذه الأفضلية هنا.. في هذا الموقف!!

والحب في الله أيضاً . . لا يزال يمد المتحابين بالعطاء حتى في حالة الدفن بعد الموت؛ فقد دفن رسول الله عبدالله بن عمرو بن حرام وعمرو بن الجموح في قبر واحد لما كان بينهما من المحبة فقال: [**ادفنوا هذين المتحابين في الدنيا في قبر واحد**].

وأخيراً: وبنظرة نافذة تتخطى حدود الزمن . . ندب رسول الله المسلمين - والجراحات لم تلتئم بعد - إلى مناجزة القوم مجدداً . . حرصاً - بعد الذي وقع - على أن يمسح عن راية التوحيد أحزانها . . ويرتفع بها إلى المستوى اللائق بها . . وخرج بالمقاتلين في اليوم الثاني - دون إبطاء - إلى (حمراء الأسد) وأقام بها ثلاثة أيام عرف بعدها أن المشركين أبعدوا في طريقهم إلى مكة . . فعاد - صلوات الله وسلامه عليه - بجنده إلى المدينة.

وكم هي عظيمة دلالة ذلك من فعل الرسول - صلى الله عليه وسلم - وحسن استجابة أولئك الصفوة لأمره ولما تلتئم الجراح . . وكم هو عظيم أن نكون بعقولنا ومشاعرنا عند المقدمات والنتائج . . وأن نعمل العمل كله ونحرص الحرص كله على استئصال تلك الجفوة أوشبهها بين الأمة وبين سيرة نبيها - عليه الصلاة والسلام - كيما تكون لنا تلك الصحوة السريعة التي كانت لأهل أحد . . وكي نعلم أن السهام التي تنوش الإسلام اليوم لا تعبر عن ضعف الإسلام في ذاته، لكنها تعبر عن كفر أسود أو نفاق كريه . . وينبغي أن يكون ذلك طريقنا إلى مزيد من الوعي لضرورة تميز الإيمان مما يقابله فيما يظهر على فلتات الألسنة والأقلام ومظاهر العمل والسلوك . .

وصلى الله وسلم وبارك على رسولنا المصطفى الذي أدى الأمانة وبلغ الرسالة وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين.